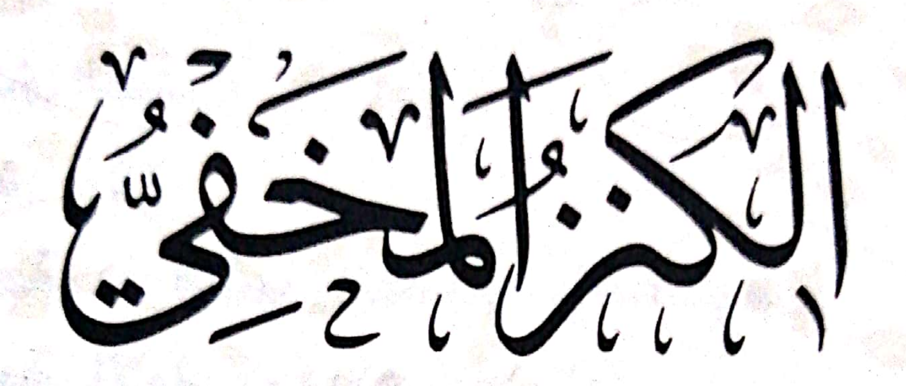
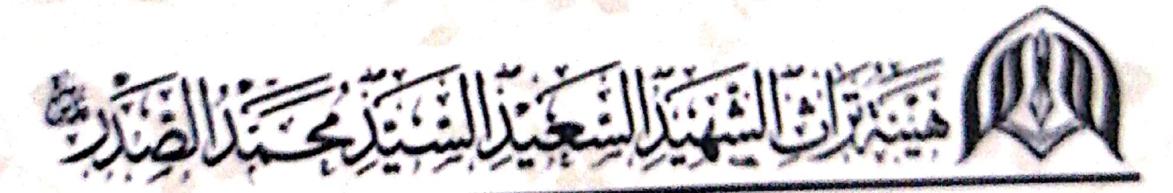


حديث في الحب الإلهي

مقتدى الصدر

الكنز المخفي

مقتدى الصدر
العدد: ٢٥٠٠
المطبعة: دار الضياء للطباعة والتصميم
الطبعة: الأولى (١٤٤٠هـ - ٢٠١٩م)



النجف الأشرف

٠٧٧٠٦٠٦٢٧٧٨
alturaath_1943@yahoo.com
alturaath.43@gmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

لا يخفى على القارئ والمطلّع أن مسألة الحبّ الإلهي والمعرفة الإلهية تعتبر ركيزة مهمة في تحديد العلاقة، سعة وضيقاً بين العبد وربه، أو بين البارئ عزّ وجلّ وخلقه، بل إنّ الحبّ هو المائز في تحديد كثير من الارتباطات، حتى بين بني الإنسان أو بين الإنسان وما يتعلّق به من عمل أو أمور مادية أخرى، ولذا نجد التركيز في كثير من الآيات والروايات على مفردة الحبّ، حبّ الخالق، حبّ الرسل، حبّ أعمال الخير وغيرها؛ ولذا غرس البارئ عزّ وجلّ هذه الصفة في فطرة الخلق،

للحفاظ على كثير من المصالح، فنرى حبّ الأم لأولادها، سواء كانت بشراً أو غيرها حباً فطرياً.

وورد في القرآن ذكر مفردة الحبّ ما يقارب خمسة وسبعون موضعاً؛ مرددةً بين حب الله، حبّ عمل الخير، حبّ العدل، حبّ القسط والإحسان، وبين عدم حبّ الفساد، والاعتداء، والخيانة، والاستكبار، وغيرها.

وفي هذا الكتاب الذي نجول بين أسطره، محاولة للتركيز على أهمّ وأعلى وأوضح، وأجلّ وصفٍ للحبّ، ألا وهو حبّ الخالق لما خلق، وحبّ الخلق للخالق، وتمحور حول الحديث القدسي: (كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق لأعرف).

فقد استظهر منه المؤلّف نكات عدّة، تفتح أبواباً في التأمل والتفكير في أصل ونشأة هذه العلاقة، بين الخالق وما خلق، بل في أصل نشأة الخلق، من حيث المراتب والدرجات.

فقد أظهر سماحته جهداً في استنطاق مفردات الحديث القدسي لمعرفة أصل النشأة والتقدّم خطوة في ربطها بالعلوم الحديثة استمزاجاً بين المادة والمعنى، فتعدّ خطوة متقدّمة لأجل الانطلاق إلى أفقٍ أوسع.

وكما هو الواضح لدى الجميع أنَّ لسماحته وآبائه اهتماماً كبيراً في كثير من المجالات التي تركّز على علاقة الفرد مع خالقه، من علوم الأخلاق

والمعرفة والعرفان.

وفي نهاية المطاف نسأل من الباري عـزّ وجـلّ أنّ يمـنّ عـلى سـماحة السـيد مقتـدى الصـدر بألطافـه وعطايـاه ليـديم امتـداد النبـع الصـافي المحمّـدي في العلوم والمعارف.

ويرزقنا من مراتب الحبّ والمعرفة ما نستحق.

مصطفى اليعقوبي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلق الخلق ودبّر أمره والحمد لله الذي خلق الخلق وأحسن صورته والحمد لله الذي خلق الخلق وعلى الخير فطره والحمد لله الذي خلق الخلق وللإيمان حببه فسبحانه وتعالى عما يشركون علوّاً كبيراً.

أما بعد، فلقد خلق الله خلقه وفتح لهم باب المعرفة والتعارف، فزين الإنسان بنور العقل ثُمَّ جعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا وغرس فيهم الأحاسيس والمشاعر فأحبوا وأبغضوا وترابطوا وانفصلوا وتقاربوا وتباعدوا.

ثُمَّ خطَّ لهم الصراط المستقيم ليسيروا عليه في كل الأُمور وفي علاقاتهم ومشاعرهم وأحاسيسهم لينظم لهم حياتهم فيتقرّبوا لمن يستحق التقرّب وليبتعدوا عمّن لا يستحقّ إلَّا البعد والابتعاد وليوالوا من يستحقّ الموالاة ويعادوا من يستحقّ المعاداة.

فقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ (يُوَادُّونَ) مَنْ (حَادَّ) اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمْ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ ...﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ (بِالْمَوَدَّةِ)...﴾

وغيرها من الآيات التي تنظّم مشاعر الإنسان من ناحية الحبّ والبغض.

لذا فعلى الإنسان أيّاً كان أن ينظم حياته بكلّ تفاصيلها بصغائرها وكبائرها - إن جاز التعبير- بما في ذلك أحاسيسه ومشاعره التي هي أهمّ الأسس التي تبتني عليها العلاقات الخاصّة والعامّة، ليس بين البشر أنفسهم فحسب، بل بينهم وبين كل المخلوقات بل الأعمّ من ذلك.

ولعلّ تلك الأحاسيس والمشاعر تكون محكومة بأمرين: (العقل) و(القلب) فالعقل هو مصدر المعرفة والقلب هو مصدر الحنان، فإنَّ كل إنسان يميّز بعقله ما هو صحيح وما هو خاطئ ثُمَّ يأتي دور القلب الذي سيتعلّق بالصحيح وينبذ الخاطئ، ومنه

قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾.

ومن نفس هذه الآية يمكننا أن نفهم أنَّ مصدر الحبّ والكراهية هو ما تقدّم من الأمرين، فالعقل هو الذي يوعز للإنسان أو الفرد أن يحب ذلك الشيء أو يبغضه، ومن ثُمَّ تتجذّر تلك الأحاسيس في القلب ولذا قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي زينه في أنفسكم وقلوبكم وجعله أمراً حسناً ومتجذّراً لا يزول بل ولعلّ ذلك موافق للفطرة الإنسانيّة من حيث يعلم أو لا يعلم.





ماهية التزيين وأقسامه

وفي نفس الوقت يمكننا أن نستنبط من تلك الآية ومن كلمة (زيِّن) أنَّ تلك المشاعر القلبيّة قد يشوبها الخطأ، فالتزيين إمّا أن يصدر ممّن هو أهل للتزيين وبطريقة صحيحة لا تغيّر من حقيقة الشيء على الإطلاق فيكون التزيين صحيحاً ومقبولاً ولا مناص من الالتزام به، وإمّا أن يصدر ممّن ليس أهلاً للتزيين فيكون اقرب للتزييف وتغيّر الحقائق، كما في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا...﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾.

وهنا يمكن أن نقسّم (التزيين) إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأوّل: التزيين الذي يكون للتكامل

الأخروي، كما في تزيينه تعالى لحبّ الإيمان في قلوب خلقه كما أسلفنا في الآية السابقة.

القسم الثاني: التزيين التسافلي، والذي غالباً ما يصدر من الشيطان أو النفس الأمّارة بالسوء، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

القسم الثالث: التزيين التكويني: كما في قوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾ ولعلّ هذا القسم يكون للتكامل الدنيوي فقط دون الأخروي،

ولـذلك ختمـت الآيـة بقولـه تعـالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ﴾.

وعلى العموم، فإنّنا يمكـن أن نقـول: إنَّ تنظيم المشاعر الإنسانيّة بكل تفاصيلها من أهـمّ الأمـور في الحياة الدنيا والتـي تنـتج أمـوراً أخـرى: تكامليـة أو تسـافلية وكـل بحسـبه، ولعـلّ بعـض المشـاعر والأحاسيس يكون أهمّ مـن العمـل نفسـه الـذي لا يجب أن ينفصل عنها بأي صورة من الصور.

فتلك الأحاسيس يجب أن تكون مقرونة بالعمل الحقيقـي والصـالح إن كانـت المشـاعر صـالحة عـلى عكس ما إذا كانت الأحاسـيس والمشـاعر باطلـة أو تسـافلية، فإنَّـه وان ورد في الحكمـة: (إنَّـما الأعـمال

بالنيات) فإنَّ النيّة في حدّ ذاتها لا تكون مثمرة من دون العمل المقرون بها والمؤيّد لها، كالذي يحبّ شخصاً إلّا أنَّ أعماله جلّها أو كلّها لا تثبت محبّته بل لعلّها تثبت بغضه لما يصدر منه من أذىً وضرر لذلك الشخص.

نعم، إنَّ تلك المشاعر والأحاسيس هي المنطلق الأساسي لتلك الأعمال الخيّرة والصالحة، فإنّها الواعز الأوّل أو يمكن أن نطلق عليها (الإرادة الحقيقية) لتلك الأفعال والأعمال مهما صغرت أو كبرت، فلولاها لما حاول الفرد الأقدام على العمل وتحقيق الهدف المنشود على الصعيد الفردي أو الصعيد المجتمعي الدنيويّ منه والأخروي على حدٍّ سواء.

تلازم النوازع الإنسانية مع العمل

وإنّني هنا ادّعي أنَّ تلـك الأحاسـيس والمشـاعر هي المفتاح لكل تلك الأعـمال الدنيويـة والأخرويـة مطلقـاً، وهــي التـي تـتحكّم بتصــرّفات الفـرد بـل والإنسانيّة جمعاء، وهي التي تنظم العلاقـات العامّـة والخاصّة على حد سواء أيضاً، فهي التـي تـوعز لـك التقرّب ممّن يستحقّ التقرّب بعـد أن أعطـاك عقلـك الضوء الأوّل في التوغّل لمحبة ذاك المستحقّ أيّـاً كـان أو الابتعاد عن الشخص الذي يسـتحقّ الابتعـاد أيّـاً كان.

فـما ينـتج عــن العقـل والمشـاعر هــو مـا يكـون صحيحاً وإذا انفصـل أحـدهما عــن الآخـر سـيكون

منتجاً لاحتمال الخطأ بصورة أكبر وأكثر، فالأحاسيس والمشاعر المجرّدة قد تكون عرضة للزلل والخطأ غالباً، كما أنَّ تحكيم العقل بلا أحاسيس ومشاعر سيكون باباً للانغلاق عن العالم والترابط المجتمعي الذي قد يقدّم المشاعر على التعقّل غالباً.

فحري بكل فرد مهما كان انتماؤه أو عقيدته أو دينه أن يحكِم العقل أوّلاً، وأن يزيّن ذلك التعقّل بأجمل المشاعر والأحاسيس التي تجعل من كافة تصرّفاته وأعماله في الدنيا والآخرة منطلقاً للتكامل ومبتعداً عن التسافل.

بل إنَّنا نستطيع التقدّم لمرحلة أخرى، فنقول: إنَّ

كل من يحكم عقله، فإنَّ العقل سيخبره بوجوب تحكيم المشاعر والأحاسيس ضمن نطاق العقل بطبيعة الحال وعدم الخروج عن قواعده العامّة التي هي قواعد صحيحة سلفاً، كما في حال اختيار صديق لك فإنَّ العقل يحكم باختيار من هو أهل للصداقة من جميع النواحي، وممّن يعينك في دينك ودنياك وآخرتك لكن في نفس الوقت سيوعز لك عقلك بتبيان مشاعرك مع ذلك الصديق الصدوق لترتبطا بطريقة صحيحة مبنية على الحبّ والمودة.

وممّا يجب الالتفات إليه، هو أنَّ تحكيم العقل في تنظيم المشاعر والأحاسيس سيضفي عليها الاستمرارية وعدم انتهائها، فكلّ مشاعر لم تبن على

أسس صحيحة فإنَّ مصيرها الزوال لا محالة، كما العكس بطبيعة الحال، فالكثير من العلاقات الاجتماعية كالصداقة أو العلاقة الزوجية التي لا تبنى على القواعد العقليّة الصحيحة سيكون مصيرها الفشل، لأنَّها مبنيّة على الشهوة أو الشهرة أو ما إلى غير ذلك من أمور لا يرتضيها العقل على الإطلاق.

ومن هنا يصعب التمييز بين المشاعر الحقيقية وبين المشاعر والأحاسيس التي لا تبتني على الأسس الصحيحة إلَّا بعد زوالها وتغييرها جزئيّاً أو جذريّاً، إلَّا إذا كان الفرد مقتنعا بها ومتجذّرة في عقله ومتأصّلة في قلبه فعليه السير قدماً نحو ما يأمره عقله وقلبه اللذان يحتاجان غالباً إلى التهذيب والتشذيب

كما يعبرون.

فعقل الإنسان ليس معصوماً عن الخطأ وإن ورد في الحكمة: (العقل نبيّ من الباطن) أو نبيّ الله في الباطن، فإنَّ كونه نبيّاً يحتاج إلى مقدّمات طويلة ليصاغ العقل كنبيٍّ للفرد، وسيأتي الكلام طيّاً عن ذلك إن شاء الله تعالى ... ولا الأحاسيس والمشاعر والعواطف معصومة عن الخطأ أيضاً، فكلاهما يحتاج إلى صياغة وإلى تنظيف إن جاز التعبير، حاله حال الجواهر التي يعتريها السواد، فإنّك إن لم تجليها لا تكون لناظريك أمراً مستحسناً ولن تستفيد منها على الإطلاق.

نعم، إنَّ كلّ عاطفة مجرّدة وإن كانت عاطفة بريئة

كما في عواطف الطفل، لكنّها ستؤدّي إلى ما لا تحمد عقباه أكيداً، كالطفل حينما يرى النار أمراً جميلاً ومحبوباً فيمد يده ليمسكها فتحرقه، فكذلك عواطف الفرد الكبير الذي لا تنظيم في عواطفه.

عوامل تنظيم العواطف والمشاعر وضبطها

وأهمّ ما ينظّم تلك العواطف أو المشاعر أو الأحاسيس عدّة أمور، منها:

أوّلاً: أن لا تتحكّم بها الشهوات والميول الشخصيّة والنفسيّة، وإلّا ستكون في مهبّ النفس الأمّارة بالسوء، وكما قلنا سابقاً فإنَّ كل ما بني على تلك الشهوات سيكون عرضة للزوال والندامة أكيداً.

ثانياً: إنَّ ينظر إلى النتائج المترتّبة عليها، فإن كانت نتائج إيجابيّة فتلك العواطف والأحاسيس إيجابيّة وإلَّا فهي سلبيّة، كما في الكثير من الحالات الاجتماعيّة والزوجيّة التي تؤدّي إلى نتائج سلبيّة فيسارع الفرد إلى الزواج الثاني على سبيل المثال لأنَّه أغرم شهوياً بامرأة ثانية فيكون زواجه من الثانية زواجا شهوياً سرعان ما يزول وينتج عنه تهديم العائلة الأولى وعدم استمرار الثانية.

ثالثاً: أن لا تتحكّم به تلك العاطفة أو المشاعر بل يتحكّم بها، وفقاً للمصالح والمفاسد العامّة والخاصّة، وأن لا يسير بها من دون هدى أو نظام صحيح وإلَّا فإنَّ النتائج ستكون وخيمة غالباً.

رابعاً: أن لا ينظر إليها بنظرة دنيوية فحسب، بل لابدّ من أخذه بنظر الاعتبار الأمور الأخرويّة التي هي الأهمّ في كلّ ذلك، فما كان يرضي نفسه ولا يرضي دينه وعقيدته فهو أمر لا يكون صحيحاً.

نعم، قد غرس الله سبحانه وتعالى في الإنسان الكثير من المشاعر التي يستطيع الإنسان إخراجها وفقاً لنظم معيّنة أو يخرجها وفقاً للشهوات والميول والنزوات الدنيوية فحسب، كالحزن والغضب والجوع والعطش وما إلى غير ذلك كثير، إلّا أنّه يبقى (الحبّ) أو (الحبّ الصادق) سيّد المشاعر الذي يكون مفتاحاً لكلّ المشاعر الأخرى، فيكبت غضبه أمام من يحبّه ويترك الفرح أو الحزن لمداراة من يحبّ

وهكذا، بل وكما قلنا فهو أساس كل شيءٍ وتبنى عليه جلّ العلاقات بل كلّها.

بل ويمكننا القول إنَّ (الحبّ) الصادق هو أساس العمل الصالح بل والطالح أيضاً لمن لم ينظّم مشاعره وأحاسيسه وعواطفه، بل وإن (الحبّ) هو أساس الدين والعقيدة والأخلاق وكلّ ما هو خير وحسن على الإطلاق وهذا ما أؤمن به في جميع مناحي الحياة فمن أحبّ دينه ثبت ومن أبغضه زل وهكذا في كل شيء.

الحبّ أساس الخلق

بل يمكنني هنا أن ادّعي أنَّ (الحبّ) هو أساس الخلق أيضاً، فلولا (الحبّ) لما خلق الله تعالى الخلق

على الإطلاق، وأوضح دليل على ذلك هو ما ورد في الحديث القدسي: «كنتُ كنزاً مخفيّاً فأحببت أن أُعرف وخلقت الخلق لكي أُعرف»، فمن طيّات هذا الحديث القدسي نفهم عدّة أمور سنتطرّق إليها إذا شاء الله تعالى، بعد أن نعرف أنَّ هذا الحديث القدسي مختلف فيه، فمن العلماء - من كلا الفريقين- من أثبته وعمل به وفقاً لاستنتاجاته وهناك من أسقطه - إن جاز التعبير- من حيث السند والمضمون، إلَّا أنَّ أكثر من عمل به هم من كان لهم باع في الباطن والتصوّف حيث مالوا له كثيراً في أعمالهم وأقوالهم وأفعالهم واستنباطاتهم وما إلى غير ذلك.

وبغض النظر عن السند وصحّته، أو قل بغض

النظر عن وجود سند مذكور له، فإنَّه يمكن الاعتماد على بنوده وما ورد فيه من أمور ذات مضامين جيدة يمكن الاستفادة منها على أي حال، خصوصاً أنَّ جلّ (الأحاديث القدسيّة) التي وردت في الأخبار لم يرد فيها سند.

إلَّا أنَّه يمكن عرضه على العقل من جهة وعلى الذوق الباطني من جهة أخرى، فإن وافقتهما فلا مانع من الاعتماد عليه، وإن عارضتهما فالأولى تركه من هذه الناحية، مع الالتفات إلى أنَّ علوم الباطن لا تشابه العلوم الظاهريّة من هذه الناحية، فالفقهاء غالباً يسارعون إلى إسقاط الأحاديث التي لا سند لها، أو التي لا يتّفق على سندها ثُمَّ يسارع الباقون إلى

الاقتداء بهم وفق المشهور أو وفق قواعد يعتمدونها للإثبات والرد.

غير أنَّ ذلك لا يكون قاعدة مطّردة في علوم الباطن، فليس لأهل الباطن قواعد عامّة يسيرون عليها، وفي نفس الوقت هناك قواعد خاصّة تتوافق مع مقاماتهم وحالاتهم ودرجاتهم الخاصّة بهم أنفسهم ولا تنطبق على الباقين، ولذا فإنَّ بعض الروايات التي يعتمدون عليها وكذا الأحاديث إنَّما يعتمدون عليها من ناحية تطابقها مع بواطنهم وأحاسيسهم.

وأنّني لأجد أنَّ الحديث القدسي أعلاه ممّا يتوافق مع مستويات كثيرة ومراحل أكثر يمكن الاستفادة منه بدرجة من الدرجات، وليس فيه ما يناقض



القواعد الباطنيّة العامّة التي سار عليها عرفاؤنا وسادتنا في الكثير من حياتهم العمليّة الباطنيّة والمعنويّة بل والعرفانيّة أيضاً.

ومن هنا فإنّنا سنغض النظر عن ذلك الخلاف الذي وقع في سند هذا الحديث القدسي بين العلماء والفقهاء، فإنّه وإن لم يكن ثابتاً كحديث قدسي إلّا أنّ فيه من الحكمة الكثير، لذا فلا مانع من أن يؤخذ بنظر الاعتبار وسنستشهد به في بحثنا هذا إن شاء الله تعالى.

ففي هذا الحديث عدّة أمور مهمّة يجب تسليط الضوء عليها ليكون دليلاً على ما قلناه من أنّ (الحبّ) هو أساس الخلق، ولا نقصد بالحبّ هنا

الحبّ العاطفي المجرّد بل هو الحبّ المقرون بالتعقّل والمعرفة.

حديث كنتُ كنزاً مخفياً؛ المفاهيم والسياق

نصّ الحديث: «كنت كنزاً مخفياً فأحببت أن أُعرف فخلقت الخلق لكي أُعرف» وفيه عدّة نقاط مهمّة، منها:

النقطة الأولى: (كنت كنزاً مخفيّاً)، وهو على الرغم من أنَّه خارج عن موضوعنا إلّا أنَّه لا بأس بالتطرّق إليه لأهمّية الموضوع ولسعة الاطّلاع كما يعبرون...

وأصل كلمة (كَنَزَ): هو اختفاء الشيء الثمين، ككنز المال أي أخفاه، بمعنى أنَّ في كلمة (كنز) جنبتين:

الجنبـة الأولى: خفاؤه واختفاؤه، وسرّيتـه وعـدم الاطّلاع عليه بأي صورة من الصور.

الجنبة الثانية: هو أهمّية الشيء المكنـوز، دنيويـاً أو أخروياً، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ ثُمَّ اشتق منه كلّ خفـاء مهـما زاد وقـلّ ثمنـه كقـولهم كنـز الـرمح، أي: ركـزه في الأرض وهكذا.

وكذلك يمكن أن نقول: إنَّ الكنز هو (السِر) أي ما خفـي مـن الأمـور المعنويّـة دون الأمـور الماديّـة، فكذلك سبحانه وتعالى كان كنزاً معنويّـاً خفـي عـن الجميع وبإرادتـه سـبحانه وتعـالى أي أخفـى نفسـه

بنفسه وأخفى ذاته بذاته - إن جاز التعبير- إلَّا أنَّه يمكن للقائل أن يقول: إذا كان أحد شروط الكنز هو الخفاء، فلماذا وصف نفسه بأنَّه مخفيٌّ حيث قال: كنت كنزاً (مخفياً) مع أنَّه يمكن الاكتفاء بكلمة كنز فيقول: (كنت كنزاً فأحببت أن اعرف ... إلى آخر الحديث القدسي).

فنقول: لنا عدّة أطروحات منها:

أوّلاً: انه تأكيد على خفائه، فلو أنَّه سبحانه وتعالى قال: (كنت كنزاً) ولم يردفها بـ: (مخفياً) لفهم إرادة الجنبة الثانية دون الأولى أي أهمّية الشيء وإن لم يك مخفياً.

ثانياً: أنَّه فيه إشارة إلى خفائه منذ الأزل، وأنَّه لم

يقع عليه الاختفاء، فهذا محال بالنسبة إليه.

ثالثاً: أنَّ الخفاء المذكور في الحديث القدسي، هو الخفاء الواجب - إن صحّ التعبير- فلا يمكن الاستغناء عن تلكم الكلمة، أعني (مخفيّاً) فخفاؤه واجب وضروري من أكثر من وجه:

الوجه الأوّل: أنَّه لم يكن هناك خلق لكي يعرفه ويظهر لهم، فهو مخفي بخفاء خلقه.

الوجه الثاني: أنَّه مخفي وجوباً، بمعنى أنَّه إذا لم يخفَ سيكون هناك (انفجار) كبير في البين، أو قلّ إنَّ ظهوره سيؤدّي إلى اختفاء الطرف الذي ظهر أمامه فيجعله دكاً. وما يساعدنا على ذلك قوله تعالى في محكم كتابه العزيز: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ

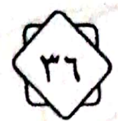
رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

فإن قيل: إنّنا إذا سلمنا بما أسلفت من أنَّ ظهوره سبحانه وتعالى سيؤدّي إلى اختفاء الطرف الآخر وأنَّه سيكون هناك انفجار أو سيجعله دكاً دكاً، سيؤدّي بالتالي إلى استحالة ظهوره سواء أحب أن يعرف أم لم يحب ذلك.

قلنا: هذا صحيح في مستوى من المستويات، إلَّا أنّنا إذا أردنا أن نوضّح الأمر فإنّنا سنجعل ذلك على أكثر من مرحلة:

المرحلة الأولى: أنَّه سبحانه وتعالى حينما طلب منه نبي الله موسى عليه السلام وقال له: أرني انظر إليك ... كان ذلك في عالم الدنيا، وظهوره في هذا العالم هو الذي يؤدّي إلى الاندكاك أي يجعل (دكّاً) ولذلك قال تعالى لنبيه: ﴿لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إلى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا﴾ بل وحتى موسى عليه السلام قد خر صعقا، بمعنى أنَّه دُكَّ أيضاً إلّا أنَّ الله سبحانه وتعالى شاء إن يبقيه حيّاً أو لعلّه أعاده إلى الحياة والله العالم.

ومن هنا - أعني - من حيث إن الله سبحانه وتعالى يستطيع حين تجليه للآخرين وظهوره لهم أن يجعل المقابل دكّاً أو لا يجعله، فلذا جعل الجبل دكّاً

ولم يجعل من نبي الله موسى كذلك. ولذا فإنَّ المرحلة الثانية، هي:

المرحلة الثانية: أنَّه سبحانه وتعالى كان كنزاً مخفيّاً فأحب أن يعرف فظهر للعوالم الماديّة التي خلقها فلما كان إلَّا أن جعلت دكا بل ويمكن القول أنَّ الانفجار الكبير هو نتيجة ظهوره سبحانه وتعالى.

فإن قيل: إنَّ الانفجار يعني زوال كل شيء ولا يعني إيجاد خلقٍ جديد.

قلنا: نعم، إلَّا أنَّه بعد أن خلق الله تعالى أُسس الخلق، ثُمَّ بان لها، فانفجرت لتولّد بمشيئته الكون كلّه ثُمَّ التدرّج في الخلق شيئاً فشيئاً ... حتى وصل الأمر إلى ما هو عليه في يومنا هذا.

وكما قلنا قبل قليل: فإنَّ الله سبحانه وتعالى أراد بظهوره لخلقه أن يكون هناك توليد جديد للخلق سواء من خلال الانفجار أو بطريقة أخرى قد خفيت عنّا أم لم تخفَ، فما انفجر حاله حال الجبل الذي جعله دكّاً وما تمخّض عنه فهو حاله حال نبي الله موسى في الآية السابقة ... والله العالم.

ثم إنّنا نستطيع أن نضيف أنَّ في المرحلة الثانية لم يك هناك جبل ليكون دكّاً بل كان ما هو قابل لتوليد الخلق أو للانفجار الكبير من حيث كون ما خلقه أساساً للخلق هو عبارة عن ذرّات والكترونات وعناصر قابلة لذلك الانفجار أو التوليد للخلق وإظهاره للعلن، فإنَّ أمره سبحانه وتعالى بين الكاف



والنون إذا قال لشيء كن فيكون.

إذن، فإنَّ السبب المباشر الأوّل هو التجلّيات الإلهيّة التي جعلت هناك توليداً وطاقة لخلق الخلق، ولكن هذا لا يعني أنَّها السبب الرئيسي في ذلك كما سنشير لاحقاً إذا شاء الله سبحانه وتعالى.

وإذا أردنا أن نتقدّم خطوة أخرى في بحث الكنز والخفاء .. فإنَّه يمكن القول: إنَّ هناك ثلاث مراحل أساسيّة في خلق الخلق، وهي:

أوّلاً: الخفاء الأزلي، أي حينما كان الله سبحانه وتعالى (كنزاً مخفيّاً) فهو تمهيد للخلق، فلولا هذا الخفاء الذي أنتج الظهور ثُمَّ أنتج بدوره توليداً للخلق أو انفجاراً لما خلق الخلق على الإطلاق.

ثانياً: الظهور بعد الخلق وهـو لسببين: (الحب والمعرفة) وسنفصل ذلك بعد قليل إذا شاء الله تعالى، وتسبّب هذا الظهور بتوليـد الخلـق كـما أشرنـا قبـل قليل.

ثالثاً: الخفاء بعد الظهور، فلو أنَّه تجلّى تجليّاً طويل الأمد لما استقرّ الخلق بعد إن بدأ الانفجار أو التوليـد بأي طريقة كانت سرّية أم علنيّة.

فيظهر مـن ذلـك، أنَّ أحـد أهـمّ الأسـس التـي استمرّ معها الخلق هو الخفاء والتجلّي إن جاز التعبير، وهو لا يحتاج أكثر من (كن فيكون) سـبحانه وتعـالى عمّا يشركون علواً كبيراً.

النقطة الثانية: كلمة (فأحببت)، التـي يمكـن أن

نستفيد منها في صلب بحثنا هذا، من حيث إنَّ الدافع الأوّل للخلق هو: (الحب)، بمعنى أنَّ الحبّ هو السبب الأوّل للخلق، فلقد أحبّ الله أن يخلق الخلق كي يعرف، ولكي نبتعد عن إشكال كيفيّة صدور الحبّ من الله سبحانه وتعالى فإنَّنا سنفسّر ذلك الحبّ بعدّة أطروحات، منها:

الأطروحة الأولى: أنَّ المراد من الحبّ هنا هو (المشيئة) أي شاء الله أن يعرف فخلق الخلق، وبطبيعة الحال فإنَّ مشيئته بين الكاف والنون فيقول للشيء كن فيكون.

الأطروحة الثانية: أنَّ المراد به هو (الإرادة) بمعنى أنَّ الله أراد أن يخلق الخلق، وكما نعلم فإنَّه إن

أراد الله شيئاً إنَّما يقول له كن فيكون.

وهنا يمكن لقائل أن يقول: إنَّه إذا كان المراد من كلمة (أحببت) الواردة في الحديث القدسي هي المشيئة أو الإرادة، فهذا يعني أنَّ السبب الرئيس هو أحدهما إمّا المشيئة باعتبارها إيجاداً للشيء وإصابته كما فسّره الراغب في مفرداته، وتختلف عن الإرادة، وإمّا الإرادة باعتبارها الرغبة في فعل الشيء، وهذا ينفي مدعى أنَّ الحبّ هو السبب الرئيسي للخلق.

جواب ذلك: أنَّه لا يمكن أن نتصوّر صدور الحبّ بمعناه الساذج والبسيط من الله سبحانه وتعالى، بل إنَّ الحبّ الحقيقي ليس مجرّد عاطفة وإن صدر من المخلوق فضلاً عما إذا صدر من الله خالق

كلّ شيء، فالحبّ عبارة عن أمر مركّب من عدّة أمور، منها:

الأمر الأوّل: المصالح والمفاسد، فليس من الصحيح أن يحبّ الفرد شيئاً ويتعلّق به من دون معرفة المصالح والمفاسد، بل من الضروري أن يحبّ ما فيه المصلحة ويبغض ما فيه المفسدة، وإلّا فيكون أمراً خاطئاً أكيداً، ولذا قال الله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الأمر الثاني: هو الإرادة، بمعنى أنَّ الإرادة والحبّ لا ينفصلان، فإنَّه إذا أراد شيئاً أحبّه وإذا

أحبّ شيئاً فإنَّه يريده ويفعله.

وإذا أردنا التعمّق قليلاً، فإنَّنا سنجيب بجواب أدق، من حيث كون الإرادة والمشيئة هي أمور مترتّبة على (الحبّ)، أو قل إنَّها فرع الحبّ، فإذا أحبّ الله شيئاً فإنَّ ذلك معناه تعلّق المشيئة والإرادة به، وليس أنَّ الحبّ والإرادة شيء واحد لا ينفصلان.

لكن غاية الأمر أنَّ محبّة الله لأي شيء تكون مقدّمة لإرادته ومشيئته وهما بدورهما يؤدّيان إلى الإيجاد الحقيقي لأي شيء أراده الله أو شاءه، وهنا يقع الاختلاف الحقيقي بين الحبّ الإلهي الصادر منه كخالق وبين الحبّ الصادر من المخلوق على اختلاف درجاتهم، فالخلق وإن أحبّ شيئاً أو أراده إلَّا أنَّ هذا

لا يعني تحقّقه بصورة مطلقة، فكم من مخلوق أحب شيئاً لكنه لم ينل منه شيئاً على الإطلاق سواء في الأمور المعنويّة أو الماديّة.

ومن هنا لا يمكن أن يوصف الحبّ الصادر من الله سبحانه وتعالى أنَّه حبّ ساذج، أو أنَّه حبّ عاطفة محضة، فتعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً، بل إنَّما هو جوهر الإرادة وجوهر المشيئة، ولذا سيبقى الحبّ كما ادّعينا: هو السبب الرئيسي لإيجاد الخلق.

وبعبارة أخرى: فإنَّ الخلق هو أحد التجلّيات الإلهيّة العظيمة التي كانت سبباً رئيسيّاً في إنشاء الخلق، وكان هذا التجلّي مظهراً من مظاهر الحبّ الإلهي الذي هو بدوره أساس هذا التجلّي، فإنَّ الله

حين أحب أن يخلق فتجلّى لما خلق من (عناصر) فتفتّق عنها الخلق وبالتالي سيكون هذا التجلّي فيض من فيوضات الحبّ الإلهي وبطبيعة الحال فإنَّ فيوضاته تعالى لا متناهية فسيبقى حبّه يفيض على الخلق ما بقي الخلق.

وبالتالي يمكننا أن ندّعي أنَّ الحبّ ليس السبب الرئيسي في الخلق فحسب، بل هو السبب في استمراره أيضاً ماديّاً ومعنويّاً - إن جاز التعبير- فإنَّ الشعاع الأوّل الصادر منه تعالى كان عبارة عن (الحبّ) ثُمَّ اخترق (الموشور) لينتشر الشعاع على الخلق أجمعين.

وكما نعلم فإنَّ الشعاع بطبيعته يخترق الموشور

والذي بدوره سيوزع الشعاع إلى عدّة أمكنة ليفيض على الجميع بذلك الشعاع، وهنا يجب أن نلفت عناية القارئ إلى أنَّه لا يمكن الاستغناء عن (الموشور) فإنَّ الشعاع الإلهي لا يمكن أن يفيض على خلقه مباشرة فهو ممّا لا يتحمّله عامّة الخلق.

أهل البيت عليهم السلام واسطة الفيض الإلهي

لذا فإنَّنا يمكن أن ندّعي أيضاً أن الله قد خلق خلقاً يتحمّل شعاعه الصادر منه أوّل مرة ثُمَّ يكون هذا الموشور مصدر نشر لهذا الشعاع حسب الاستحقاقات والتحمّل وكل بقدره بطبيعة الحال.

لذلك فقد خلق الله (نور العصمة) ليكون موشوراً لشعاعه ليفيض على الخلق وليكون مصدراً

لإتمام الفيض الإلهيّ على الخلق كلّه بحسب درجته ومنزلته، ولعلّ لنا على ما ندعي عدّة قرائن، منها:

أوّلاً: حديث الكساء، الذي نصّ على: (**يا ملائكتي ويا سكّان سماواتي إني ما خلقت سماء مبنية ولا أرضاً مدحية ولا قمراً منيراً، ولا شمساً مضيئة ولا فلكاً يدور، ولا بحراً يجري، ولا فلكاً يسري إلّا في محبة هؤلاء الخمسة الذين هم تحت الكساء**). وهذا يصلح قرينة عالية المستوى على أنَّهم أحد المسبّبات للخلق، وخصوصاً بعد أن نعلم إنَّ الحديث القدسي ينصّ على: (خلقت الخلق كي "اعرف") ولا تصدر المعرفة الحقيقيّة لله سبحانه وتعالى إلَّا منهم وسيأتي الحديث عن ذلك بشكل

مفصّل إن شاء الله تعالى.

ثانياً: ما ورد في زيارة أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب سلام الله عليه، حيث تنصّ: «**السلام عليك يا (أمين الله) في أرضه وحجّته على عباده**»، فكلمة أمين الله تعني - ولو كأطروحة-: بأنَّه أحد المعصومين الذي أمَّنوا الخلق من الشعاع الأوّل الصادر من الله سبحانه وتعالى فأفاض علينا سلام الله عليه من نور الشعاع من خلال الموشور ... والله العالم.

وهناك الكثير من الأحاديث والروايات التي يمكننا أن نستنبط منها الدليل على مدّعانا أعلاه.

النقطة الثالثة: فقد ورد في نفس الحديث القدسي

كلمة أخرى تنفع في الاستدلال بما تخصّ بحثنا هذا، بل وأنَّ الكلمة تكرّرت لأكثر من مرّة، وهي: «كنت كنزاً مخفيّاً فأحببت أن (أعرف) وخلقت الخلق لكي (أعرف)»، وهذا عين ما قلناه في بداية بحثنا هذا، من أنَّ العاطفة والأحاسيس يجب أن تكون مقرونة بالحكمة والتعقّل فلا ينفصل أحدهما عن الآخر على الإطلاق، بل وكما ألمعنا سابقاً من أنَّ انفصالهما قد يؤدّي إلى الخطأ في النتائج ولا سيّما إذا كان أحدهما صادراً من المخلوق.

فتكون النتيجة: أنَّ الله سبحانه وتعالى بعد أن جعل من (الحبّ) هو الصادر الأوّل، أو السبب الأوّل في الخلق قرنه بـ(المعرفة).

وبمعنى آخر: فإنَّه سبحانه وتعالى أنشأ الخلق على أساس حبّه للخلق كما أسلفنا قبل قليل، وأراد من الخلق معرفته والتي هي العلاقة التي تربط الخالق بالمخلوق.

وهنا لا يمكن أن يقال: إنَّه يجب أن يكون الحبّ متبادلاً إن جاز التعبير، فإذا كان الصادر الأوّل منه تعالى هو الحبّ فيجب أن يكون الصادر الأوّل من الخلق نحوه هو (الحبّ) أيضاً، بمعنى أنَّ الذي يقابل شعاع (الحبّ) الصادر منه أو النازل إلينا هو شعاع حب صاعد منا إليه تعالى.

فجواب ذلك واضح، حيث إنَّ الحبّ الصادر أو الصاعد من المخلوق إلى الخالق لا يمكن أن يكون

هو الحب إلَّا بعد معرفته، فالمخلوق لا يمكن أن يحبّ شيئاً مجهولاً، فحبّ المخلوق لخالقه يجب أن يكون عن دراية ومعرفة دقيقة ليكون الحبّ حقيقيّاً ومتجذّراً، ولذلك فإنَّ أغلب من لم يصدر منهم الحبّ نحوه تعالى فإنَّهم قد اكتنفهم الجهل قبل العصيان والله العالم، وما يصدر من عصيان بعد المعرفة فهذا لا يغفر على أي حال.

ومن الواضح أنَّ الحبّ الصادر من المخلوق هو من يجب أن تتقدّمه (المعرفة) لا العكس، بمعنى أنَّ الحبّ الصادر من الله سبحانه وتعالى لا يجب أن يكون له مقدّمة المعرفة، فهو لا يحتاج إلى المعرفة، فقد أحاط بكل شيئاً علماً، فقد قال تعالى في كتابه العزيز:

﴿إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فعلمه من الأزل وإلى الأبد فلا يمكن أن تفرض معرفة ابتداءً قبل الحبّ فهذا محال في حقّه سبحانه وتعالى.

نعم، (المعرفة) يجب أن تتقدّم (الحب)، وإلّا لا يمكن تصوّر وقوع الحبّ، لا بين المخلوق وخالقه فحسب، بل حتى بين المخلوقات فيما بينها، فلا يمكن أن يتصوّر أنَّ الفرد يحب شيئاً مجهولاً عنده، ولو فرضنا حبّه للمجهول فإنَّه حبّ ساذج وغير متجذّر على الإطلاق بل ويصعب استمراره وديمومته أكيداً.

ثُمَّ إنَّه يجب الالتفات إلى أمر مهمّ آخر، وهو كون المعرفة التي أرادها الله سبحانه وتعالى من خلقه هي

معرفة متعلّقة بالحب أيضاً، من حيث إنَّ معرفتهم لله سبحانه وتعالى إنَّما هي لأجلهم لا لأجله، فمعرفة الخلق للخالق لا تكون ذات أثر بالنسبة إليه سواء عرفوه أم لم يعرفوه، إلّا أنَّ النتيجة المتوخاة هي نتيجة إيجابيّة للخلق إن عرفوه، وسلبيّة بالنسبة إليهم إذا جهلوه حالها حال كلّ التكاليف مطلقاً. فإنَّ أوّل نتائج معرفة المخلوق لخالقه هي التكامل في الدرجات الماديّة والمعنويّة على حدٍّ سواء، وأنَّ الجهل به سبحانه وتعالى هو التسافل بعينه.

إشكال وجواب

إلّا أنَّه قد يواجهنا بهذا الصدد إشكال مهمّ يجب أن نذكره ثُمَّ نجيب عنه، فإنَّه قد ورد في الحديث



النبوي: (يا عليّ، ما عرف الله إلّا أنا وأنت، ولا عرفني إلّا الله وأنت، ولا عرفك إلّا الله وأنا)، وإذا ضممنا هذا الحديث النبوي إلى الحديث القدسي، فإنّه يصعب علينا تفسير صدور المعرفة من الخلق نحو خالقهم، إلّا أنّنا نستطيع أن نجيب عن ذلك ونوضّحه على مراحل:

المرحلة الأولى: إنَّ للمعرفة مستويات ودرجات كثيرة تتفاوت بين فرد وآخر كما هو معلوم، فهناك معرفة سطحيّة ساذجة وهناك معرفة عميقة وحقيقيّة وما بينهما الكثير من الدرجات والمستويات التي تتفاوت بين زمان وآخر، ومكان وآخر، بل وفرد وآخر وهكذا.

المرحلة الثانية: أنَّ للمعرفة منحيين:

المنحى الأوّل: مطلق المعرفة على اختلاف درجاتها؛ المتدني منها والعالي، والرمزي منها والحقيقيّ، والسطحي منها والمتجذّر، والساذج منها والواعي وهكذا.

المنحى الثاني: المعرفة المطلقة، وهي أعلى مراحل ودرجات ومستويات المعرفة وهي المعرفة الحقيقيّة والكاملة.

المرحلة الثالثة: أنَّ الحديث القدسي ينصّ على (المعرفة) وليس العلم، ويقال إنَّ المعرفة تختلف عن العلم، من حيث إنَّ المعرفة: هي الإدراك التصوّري، بينما العلم: هو الإدراك التصديقي.

المرحلة الرابعة: أنَّ ما ورد في الحديث النبوي: (يا عليّ، ما عرف الله إلَّا أنا وأنت) إنَّما المقصود منه هو (المعرفة المطلقة) لا مطلق المعرفة، أي أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله وعلي عليه السلام هم فقط من يعرفون الله بالمعرفة المطلقة، أي بأعلى درجاتها وأرقاها وهي المعرفة الحقيقيّة التي لا يمكن لأي من البشر الوصول إليها.

المرحلة الخامسة: أنَّ المراد من المعرفة الواردة في الحديث القدسي إنَّما هي (مطلق المعرفة) سواء في ذلك ما تدنى منها أو ما ترقى وعلا، ولذلك فإنَّها تشمل الجميع بلا فرق بين المعصومين: رسول الله صلى الله عليه وآله أو علي عليه السلام أو ما دونهم من البشر ومعرفتهم لله سبحانه وتعالى.

المرحلة السادسة: أنَّ المراد من المعرفة الـواردة في الحديث القـدسي هـي (المعرفـة المطلقـة) لا (مطلـق المعرفة) وخصوصـاً بعـد أن قلنـا فـيما سـبق: إنَّ الله سبحانه وتعالى حينما قال في الحديث القدسي أعـلاه: (فخلقـت الخلـق) أي خلقـت المعصـومين وهـم بدورهم كـ: (موشـور) كـانوا سـبباً في خلـق عامّـة الخلق ممّن هم دونهم.

لذا فإنَّ المعرفة التي وردت في الحديث بعد الحبّ إنَّما المقصود منها معرفة المعصومين لله سبحانه وتعالى وهم بدورهم يفيضون علينا من معـرفتهم ومنـازلهم ودرجاتهم ومستوياتهم كـل بحسـب تحمّلـه وتلقيـه وهكذا، فالشعاع الصادر من الله سـبحانه وتعـالى لا

يتحمّله مطلق الخلق إلَّا من خلال الخلق المطلق: (المعصوم) بل حتّى علم الله سبحانه وتعالى يحتاج إلى موشور علوم أهل البيت سلام الله عليهم أجمعين وخصوصاً محمّد وعلي روحي وأرواح العالمين لهم الفدى.

وهنا نورد ما قاله أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب عليه السلام: «أَنَا سِرُّ الأَسْرَارِ، أَنَا شَجَرَةُ الأَنْوَارِ، أَنَا دَلِيْلُ السَّمَاوَاتِ... أَنَا سَمَنْدَلُ الأَفلاكِ، أَنَا سَرِيرُ الصِّرَاحِ، أَنَا حَفِيْظُ الأَلْوَاحِ، أَنَا قُطْبُ الدَّيْجُوْرِ، أَنَا الْبَيْتُ الْمَعْمُوْرِ... أَنَا وَاللهِ وَجْهُ اللهِ، أَنَا وَاللهِ أَسَدُ اللهِ، أَنَا سيِّدُ العَرَبِ، أَنَا كَاشِفُ الكَرَبِ».

إذن، يمكن صدور مطلق المعرفة من المخلوق

باختلاف درجاتها ومستوياتهم سواء أصدرت من المعصوم أم من دونهم؛ لأنَّ المراد من المعرفة الصادرة في الحديث هي مطلق المعرفة، بل وإن قلنا إنَّ المراد منها المعرفة المطلقة سيكون صدور المعرفة من المخلوق المعصوم أوضح وأسهل تصديقاً وتعقّلاً وفهماً، فهم - أي: المعصومين- أولى الناس بمعرفته سبحانه وتعالى. وكذا يمكن صدور المعرفة التصوّرية من جميع الخلق باختلاف مستوياتهم ودرجاتهم.

حقيقة المعرفة

وممّا ينبغي بعد أن عرفنا ما تقدّم، أن نعطي تعريفاً واضحاً للمعرفة الواردة في الحديث القدسي، وسنذكر بعض ما قيل في تعريف (المعرفة)، منها:

أوّلاً: قيل: إنّها تبديل الواقعيات الخارجيّة إلى حقائق ذهنيّة.

ثانياً: الاعتقاد الذي تسكن به النفس.

ثالثاً: إدراك الشيء على ما هو عليه.

أقول: المعرفة: هي تجذير الواقع في العقل والقلب وباقي الجوارح الإنسانيّة فتدركه وتعتقد به النفس وتسكن إليه ... بمعنى تجذّر المعرفة في كامل المشاعر الإنسانيّة الذهنيّة وغيرها، ولعلي أوعز ذلك التجذّر إلى (الحبّ) أيضاً، ليس حبّ ما أريد معرفته فقط، بل حبّ التكامل وسعة الاطّلاع فإن اقتنعت بذلك الشيء فتكون الخطوة الثانية هي الإذعان بها والسكون إليه.

ومنها، أي ومن المعرفة اشتُق مصطلح (العرفان) فهو زيادة في المعرفة من خلال السير في التكاملات اللامتناهيّة التي يسلكها خاصّة الناس لا عامّته، فالعرفان هو معرفة الأسرار الإلهيّة التي تنتج فناءً فيه سبحانه وتعالى وتعترف كل الاعتراف بجميل خلقه وحسن تدبيره وواسع رحمته وعظمة جبروته وعلو كبريائه وإلى غير ذلك ممّا يعرفه أهل الباطن ويذعنون به، فينطبق عليه ما ورد في الحديث القدسي: «**عبدي أطعني تكن مثلي، تقول للشيء: كن فيكون**»، وهذا الحديث أيضاً ممّا يساعدنا كدليل على ما قلناه من أنَّ الله سبحانه وتعالى قد خلق (فيض العصمة أو نورها أوّلاً ثُمَّ فاض المعصوم بفيض: (كن

فيكون) الذي خوله الله به كتخويل الملائكة في تسيير بعض الأمـور أو هـو أعـلى وأعظـم منزلـة فإطاعـة المعصوم لله سبحانه وتعالى أكثر دقّـة وأسرع تكـاملاً كما لا يخفى، سواء في عالم الـدنيا أو العـوالم الأخـرى التي بدأت النشأة الأولى منها، فإنَّهم سلام الله عليهم أجمعين من نور واحد قالوا لربّهم (بلى) بما تعنيه الكلمة مـن الإذعـان والتصـاغر لعظمتـه وجبروتـه بكـل تفاصيلها وجزئياتها من دون قيد إلكترون من المعصية.

ولو أردنا تصوير الصادر منه إلى الخلق فكالتالي:

الصادر الأول (الحب)
الشعاع الصادر
نور العصمة
فيض العصمة
الخلق

ومن هذا التخطيط أعلاه يتبين لنا بوضوح ما قلناه قبل قليل...

سبل الوصول إلى المعرفة

يبقى السؤال المهم هو كيفيّة معرفته جلّ جلاله بكل أقسام المعرفة ودرجاتها كما أوضحنا سابقاً، فلابدّ من وجود آليات وطرق وأساليب معيّنة تكون مقدّمة لتلك المعرفة، وسنعطي بعض الأطروحات على ذلك:

الأطروحة الأولى: التفكّر، فقد ركّز القرآن الكريم على التفكّر في الكثير من الآيات، وأمر بالتفكّر في الخلق ليكون مقدّمة لمعرفته سبحانه وتعالى، فقط قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا

وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾.

ومن نفس هذه الآية نستطيع استنباط أطروحة أخرى:

الأطروحة الثانية: الذكر، والمقصود منه هنا العبادة بالمعنى العامّ، سواء العبادة الواجبة أو غيرها كالأذكار والتسبيح وما شابه ذلك.

الأطروحة الثالثة: الطاعة بالمعنى العام، ليس من خلال العبادة والإتيان بها فحسب، بل في جل الحركات والسكنات، ومنها أيضاً رفعة الخُلق والأخلاق وحسن معاشرة الناس وما إلى غير ذلك،

فكما ورد في الحكمة: (الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق).

الأطروحة الرابعة: علوم الباطن، والتي غالباً ما تكون عن طريق المجاهدات والرياضات وقمع النفس الأمّارة بالسوء والعمل على كبح الشيطان والأعراض عن الملذات الدنيويّة وما شاكل ذلك.

الأطروحة الخامسة: (العرفان) ... ولا أستطيع هنا الخوض بالتفاصيل ففيه كشف للأسرار وهو محرّم بطبيعة الحال.

الأطروحة السادسة: وعلى الرغم من إمكان القول بأنَّها متفرّعة عن الأطروحة الخامسة إلَّا أنَّ لها أهمّية خاصّة: وهي الفناء في الله سبحانه وتعالى من

خلال جعل كل الأُمور الدنيوية خالصة لـه سـبحانه وتعالى.

الأطروحـة السـابعة: كـمال التوحيـد الظـاهري والباطني بالقول والفعل فلا يـشرك بـذلك مع الله أحداً على الإطلاق.

كل تلك المقدّمات ستنتج (معرفة) وقد قال أمير المؤمنين علي ابن أبي طالبعليه السلام: «أوّل الدّين معرفته، وكـمال معرفتـه التّصـديق بـه، وكـمال التّصـديق بـه توحيـده، وكـمال توحيـده الإخـلاص لـه، وكـمال الإخلاص له نفي الصّفات عنه، لشـهادة كـلّ صـفة أنّها غير الموصوف، وشهادة كلّ موصـوف أنّـه غـير الصّفة: فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه

فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه فقد جهلـه، ومن جهله فقد أشار إليه، ومن أشار إليه فقـد حـدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال (فـيم؟) فقـد ضـمّنه، ومن قال (علام؟) فقد أخلى منه. كائن لا عن حدث موجود لا عن عدم، مع كلّ شيء لا بمقارنـة، وغـير كـلّ شيء لا بمزايلـة، فاعـل لا بمعنـى الحركـات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه متوحّد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده».

وتلك المعرفة ستكون بدورها منتجة للحـبّ... حبّ المخلوق لخالقه وسيكون الحبّ متبادلاً بعـد أن صدر منه جلّ جلاله أوّلاً.

مستويات الحب ودرجاته

كما أنَّ (الحبّ) كان السبب الرئيسي في الخلق ثُمَّ طلب الله سبحانه وتعالى معرفته والتي تنتج (حبّاً) كما قلنا قبل قليل، فإنَّ (الحبّ) مطلوب على أصعدة أُخرى، منها:

الصعيد الأوّل: حبّ الرسول صلى الله عليه وآله، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، بمعنى وجوب محبّة الرسول بما يزيد عن حبّ الآباء

والأبناء والأخوان وغيرهم ممّن ذكرت الآية، مضافاً إلى أنَّ حبّ الرسول جاء مقروناً بحبّ الله سبحانه وتعالى.

الصعيد الثاني: حبّ أهل البيت سلام الله عليهم، والآية القرآنية تنصّ على ذلك: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾، وكما قال الراغب في مفرداته: ودد: الود محبّة الشيء وتمنّي كونه، ويستعمل في كل واحد من المعنيين ... إلى آخر قوله وإن شئت فراجع.

الصعيد الثالث: حبّ الناس بعضهم لبعض، فهم إمّا (أخ) لك في الدين أو نظير لك في الخلق، وكلاهما مبني على الحبّ، أي حبّ الأخ وحبّ النظير على

اختلاف مستويات الحبّ ودرجاته، وكما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...﴾ ولا يخفى التلازم بين الأخوّة و(الحبّ).

وكنت أود أن استمرّ بهذا البحث إلّا أنّني توخيت الاختصار، بل ومن باب ليس كلّ ما يعرف يقال، فهناك أمور لا يجب كشفها لذا اكتفيت بهذا القدر الذي وفقني الله سبحانه وتعالى لأنْ أكتبه وأجعله بين يدي القارئ العزيز عسى أن ينفعنا وينفعه في الدنيا والآخرة..

والله ولي التوفيق.

فهرس المحتويات

